الافتتاحيّة

الأناجيل الغنوصيّة

رئيس التحرير

مقدّمة

تخصيص عدد من **مجلة بيبليا** للأناجيل الغنوصيّة أمرٌ قد يبدو مستغرَبًا، خاصّة إذا كان هناك اطّلاع على ما بين المسيحيّة والغنوصيّة من تعارض وتضادّ. لكنّ الواجب يقضي بأن نقدّم للقارىء رأيًا موضوعيًّا في هذه الأناجيل التي تختلف عن الأناجيل القانونيّة الأربعة اختلافًا جوهريًّا، حتّى ولو تضمّنت معطيات مستلّة أو مستقاة من هذه الأخيرة.

١ – اكتشاف مكتبة نجع حمّادي الغنوصيّة

في كانون الأوّل من سنة ١٩٤٥، اكتشف قرويٌّ مصريّ في نجع حمّادي في مصر العليا، وبطريق الصدفة، مخطوطات استثنائيّة من حيث أهمّيّتها، بيعت في السوق السوداء، أي بطريقة غير شرعيّة، وبقيت هويّة مكتشفها مجهولة لسنوات عدّة. وبعد ثلاثين عامًا أعلن المكتشف عن هويّته: إنّه محمّد علي السمّان، الذي روى كيفيّة اكتشافه المخطوطات؛ ففيما كان وإخوته يحفرون الأرض في جبل الطريف، في نجع حمّادي، وقعوا على جرّة فخّاريّة تعلو مترًا واحدًا تقريبًا. تردّد محمّد علي في كَسْرِها ظنًّا منه أنّها قد تأوي جنًّا أو روحًا شرّيرًا، ولكنّها أيضًا قد تحتوي ذهبًا؛ عندها اتخذ القرار وكسرها، فاكتشف أنّ فيها ثلاثة عشر كتابًا من ورق البرديّ، معرومة بالجلد، فأخذها إلى بيته ورماها قرب الموقد أرضًا. اعترفت والدته، أمُّ أحمد، لاحقًا أنّها أحرقت في الموقد عددًا من هذه البرديّات لإيقاد النار.

٢ – تأريخ الأناجيل الغنوصيّة

نحن أمام ترجمات قبطيّة لنصوص وُضِعَتْ أساسًا في اليونانيّة؛ هناك تفاوت في الآراء حول **تاريخها**، إذ يمكن أن ترقى إلى ما بين السنتَين ٣٥٠ و٤٠٠ ب. م.، وذلك استنادًا إلى الكتابة القبطيّة وإلى الورق المستَعمل لجعل عَرْم الجلْد أكثر سماكة[١]، لكنّ الباحثين في هذه المخطوطات هم على اختلاف حول مسألة تأريخ النصوص الأصليّة اليونانيّة؛ فبعضها ينبغي ألاّ يرقى إلى ما بعد السنوات ١٢٠–١٥٠ ب. م.؛ في الواقع، يعلن القدّيس إيريناوس، أسقف مدينة ليون في فرنسا، الذي كتب سنة ١٨٠، أنّ الهراطقة "يتبجّحون بأنّهم يمتلكون أناجيل أكثر مّما هو موجود في الحقيقة" [٢].

(١) J. M. ROBINSON, *The Nag Hammadi Library*, N.Y. 1977, pp. 13-18.
(٢) IRÉNÉE, *Adversus Haeresis*, III, 11, 9.

٣ – هل الأناجيل الغنوصيّة هرطوقيّة؟

يبدي القدّيس إيريناوس استياءً لكون الأناجيل الغنوصيّة كانت قد عرفت في أيّامه انتشارًا واسعًا بلغ بلاد الغال، وروما، واليونان، وآسيا الصغرى.

يقول بعض الباحثين بأنّه، إذا كانت هذه الأناجيل هرطوقيّة، فينبغي أن تكون قد كُتِبَت بعد أناجيل العهد الجديد القانونيّة.

وهناك مَن يعتقد أن أقوال **إنجيل توما**، التي جُمِعَت حوالى سنة ١٤٠، قد تتضمّن تقاليد أقدم من أناجيل العهد الجديد، وقد ترقى إلى النصف الثاني من القرن الأوّل، معاصرة لمرقس ومتّى ولوقا ويوحنّا أو حتّى سابقة لهم[٣].

تبيّن الباحثون في نصوص نجع حمّادي أنّ بعضها يعالج مسألة أصل الجنس البشريّ بمفردات مختلفة جدًّا عن القراءة المعتادة لسفر التكوين؛ فكتاب **الشاهد للحقيقة**، مثلاً، يروي قصّة جنّة عدن من وجهة نظر الحيّة؛ فهذه الأخيرة، المعروفة في الأدب الغنوصيّ بأنّها مبدأ الحكمة الإلهيّة، تقنع آدمَ وحوّاءَ بأن يشتركا في المعرفة، بينما "الربُّ" الحسودُ[٤] يهدّدهما بالموت، ساعيًا إلى أن يمنعهما من البلوغ إليها، وعندما فَشِلَ طردهما من الفردوس[٥].

تتراوح هذه النصوص إذًا بين أناجيل سرّيّة، وأشعار، وأوصاف شبه فلسفيّة حول أصل الكون، وبين أساطير، وسحر، وتعليماتٍ لممارساتٍ صوفيّة.

لكن **لماذا دُفِنَت هذه النصوص**، ولماذا بقيت مجهولة مدّة طويلة جدًّا بلغت ما يقارب الألف وستمائة سنة؟

إنّ حَذْفَها من القانون، على اعتبارها كتابات ممنوعة، ودفنَها في نجع حمّادي، هما إحدى نتائج صراع حاسم في تكوين المسيحيّة الأولى. لقد تمّ التنديد بنصوص نجع حمّادي، وبنصوص أخرى مشابهة، لاعتبار المسيحيّين المستقيميّ الرأي لها، حوالى منتصف القرن الثاني، بأنّها هرطوقيّة. فلقد حرّر القدّيس إيريناوس حوالى سنة ١٨٠، كتابه الشهير، **ضدّ الهرطقات**، والذي يبدأ بإعلان التزامه بـ"عَرْضِ أفكارِ الذين يعلّمون الهرطقة... لكي يبيّن كم أنّ بياناتهم هي مَحَالٌ وتتعارض مع الحقيقة... أقوم بذلك... لكي تستطيعوا أن تحفّزوا كلَّ الذين أنتم على علاقة معهم على الهرب من هاويةِ جنونٍ وتجديفٍ ضدّ المسيح"[٦].

ويشجب إيريناوس خاصّةً إنجيلاً مشهورًا، يُدعى **إنجيل الحقيقة**، معتبرًا إيّاه "ذروة التجديف"[٧]. هل يقصد إيريناوس **إنجيل الحقيقة** ذاته الذي تمّ اكتشافه في نجع حمّادي؟ من المؤكّد أنّ أسقف ليون يستعمل المصدرَ ذاته، أقلّه لواحدٍ من النصوص المكتشَفَة في نجع حمّادي، أي **الكتاب السرّيّ ليوحنّا**، كسلاحٍ لهجومه على تلك "الهرطقة".

بعد إيريناوس بخمسين سنة، وَضَعَ هيبُّوليطُس، الذي كان يعلّم في روما، مؤلَّفًا كبيرًا بعنوان: **دحضٌ لكلّ الهرطقات**، لكي "يعرض تجديفَ الهراطقة الفاسدَ ويدحضه"[٨].

في القرن الرابع، ومع ارتداد قسطنطين إلى المسيحيّة، وتَحَوُّل هذه الأخيرة إلى ديانة رسميّة، أصبحَ للكنيسة القدرة على تحريم الأناجيل الغنوصيّة، واعتبار من يقتنيها هرطوقيًّا، وبالتالي مرتكبًا لجرْمٍ، وتمّ بذات الفعل حرقُ

(٣) Cf. H. KOESTER, Introduction to the *Gospel of Thomas*, in *The Nag Hammadi Library*, N.Y. 1977, p. 117.
(٤) المقصود هو الرئيس، من اليونانيّةarcwn، هو إلهُ العهد القديم الحسود، الذي يُدعَى عادة "يَلْدَبَعُوت"، وليس الله الأسمى.
(٥) *Testemonio di Verità* IX, 45, 23-48, 18.
(٦) إيريناوس، **ضدّ الهرطقات**، المقدّمة.
(٧) إيريناوس، **ضدّ الهرطقات**، ٣: ٩، ١١.
(٨) هيبُّوليطس، **دحضُ لكلّ الهرطقات**، ١.

هذه الكتب أو تَلْفُها. لكنّ أحدًا ما، قد يكون راهبًا من دير القدّيس باخوميوس[٩]، أخذ الكتب الممنوعة هذه، وخبّأها في مكان آمِن، وبالتحديد في الجرّة التي بقيت مدفونة فيها حوالى ١٦٠٠ سنة.

٤ – لكن مَن هو الغنوصيّ؟

لم يكن الذين ألّفوا الأناجيل الغنوصيّة ووضعوها في التداول يعتبرون ذاتهم "هراطقة"؛ فمعظم هذه المؤلَّفات تستخدم مصطلحات مسيحيّة، ترتبط بوضوح بالإرث العبريّ. كثيرون منهم يؤكّدون أنّهم يعرضون تقاليدَ حول يسوع هي تقاليد سرّيّة، مخفيّة على "كثيرين". هؤلاء المسيحيّون ندعوهم "الغنوصيّين"، نسبةً إلى الكلمة اليونانيّةgnwsij ، "المعرفة". الذي يعلن أنّه لا يعرف شيئًا عن الحقيقة الأساسيّة، يُدعَى "الذي لا يعرف" (agnostique)، والذي بالمقابل يؤكّد أنّه يعرف يُقال له "العارف" (gnostique). لكنّ المعرفة ليست في الأساس معرفة عمليّة؛ تميّز اللغة اليونانيّة بين معرفة علميّة أو تنظيريّة، كمعرفة علم الحساب، ومعرفة من خلال المراقبة والاختبار، أي "المعرفة". ومعرفة الذات، يقول الغنوصيّون، تعني معرفة الطبيعة والمصير البشريَّيْن.

بالنسبة إلى تيودوسيوس الغنوصيّ، هو الذي كان ناشطًا في آسيا الصغرى ما بين العامَين ١٤٠ و١٦٠ تقريبًا، الغنوصيّ هو الذي توصّل إلى أن يفهم "مَن كنّا، وما أصبحنا؛ أين كنّا...، ونحو ماذا نحن نسرع؛ ممّا نحن نُعْتَق؛ ما هو معنى وُلِدَ، وما معنى وُلِدَ من جديد"[١٠]. لكنّ معرفة الذات على المستوى الأعمق، وفي الوقت ذاته معرفة الله، هي سرّ المعرفة.

ويؤكّد معلّمٌ غنوصيّ آخر، يُدعى مُونُويْمُوس[١١] (١٥٠–٢١٠ ب. م.) ما يلي: "دَعْ جانبًا البحثَ عن الله والخليقة والمسائل الأخرى التي من النوع ذاته. إبحث عنه متّخذًا ذاتك كنقطة انطلاق. إعرفْ مَن الذي في داخلك يجعل كلّ أمر خاصّتَه ويقول: "إلهي، وذُهني، وفكري، ونَفْسي، وجسدي". إعرف مصادر الألم، والفرح، والحبّ، والبغض... إذا فتّشتَ بانتباه عن هذه المسائل ستجدها في ذاتك"[١٢].

٥ – بماذا يؤمن الغنوصيّون؟

يؤكّد العبرانيّون والمسيحيّون أنّ هوّةً تفصل البشريّةَ عن خالقها؛ فالله هو الآخَر بطريقة مُطْلَقَة. لكنّ بعض مؤلِّفي الأناجيل الغنوصيّين يعترضون على ذلك، لأنّ الأنا والإلهيّ متماهيان بنظرهما. إضافة إلى ذلك، يتكلّم "يسوع الحيّ" في هذه النصوص على الفهم والاستنارة، وليس على الخطيئة، ويأتي كدليل ليفتح لنا طريقَ الفَهْم الروحيّ؛ وعندما يبلغ التلميذُ الاستنارة، يتوقّف يسوع عن أن يكون معلّمه الروحيّ، لأنّهما **يكونان قد** صارَا متساويَيْن، لا بل متماهيَين.

أخيرًا، يؤمن المسيحيّون بيسوع ربًّا وحيدًا وابنًا لله، مختلفًا أبدًا عن باقي البشريّة التي جاء ليخلّصها. لكنّ **إنجيل توما** الغنوصيّ يفيد بأنّ توما ، ما إن عرفه حتّى قال له يسوع بأنّهما نالاَ كلاَ الاثنين الوجودَ من المصدر عينه: "قال يسوع: أنا لم أَعُدْ معلّمك، لأنّك أنتَ ثَملٌ؛ لقد ثملتَ من المَعين الغزير الصادر منّي... مَن يشرب من فمي يصبح مثلي، بالطريقة ذاتها التي أنا أصبح مثله، فتصبح الأمور الخفيّة مكشوفةً له"[١٣].

هذه التعاليم حول الهويّة الإلهيّة والإنسانيّة، والصِلَة

(٩) Cf. F. WISSE, «Gnosticism and Early Monasticism in Egypt», in *Gnosis: Festischrift für Hans Jonas*, Göttingen 1978, p. 431-440.

(١٠) THÉODOTE, cité par CLÉMENT d'ALEXANDRIE, *Extraits de Théodote*, trad. F. Sagnard, Cerf, coll. « Sources chrétiennes », 21970, 78,2.

(١١) HYPPOLYTE, *Refutation of All Heresis*, VIII, 15, 1-2.

(١٢) ما نعرفه عن مُونُويْمُوس مصدره تيودوريطس في كتابه: **مختصر خرافات الهراطقة** (MONOIMUS, *HaereticarumFabularum Compendium*, I, 18).

(١٣) **إنجيل توما** ١٣ و١٠٨ (٣٤، ٣٠ي؛ ٥٠؛ ٢٨ي).

بين الوهم والاستنارة، ألا تبدو شرقيّة أكثر منها غربيّة؟ هل تأثّرت الغنوصيّة بالبوذيّة والهندوسيّة؟ لقد فُتِحَت طرق التجارة بين العالم اليونانيّ الروماني وبين الشرق الأقصى في الزمن الذي ازدهرت فيه (بين عامَي ٨٠ و٢٠٠ ب. م)؛ وكان المرسلون البوذيّون يقومون بنوع من التبشير في الإسكندريّة من أجيال عدّة. نشير إلى أنّ هيبُوليطُس، وهو مسيحيّ ناطق باليونانيّة في روما (حوالى السنة ٢٢٥)، يعرف البَرَهْمانيِّين الهنود، ويُدرج تقاليدَهم بين مصادر الهراطقة[١٤]. لكنّ هذه الإشارات لا يمكن اعتمادها كأدلّة قاطعة.

٦ – فهم جديد للغنوصيّة بعد نجع حمّادي

ساهمت اكتشافات نجع حمّادي بشكل واضح في تبيان جوانب عدّة كانت غامضة من الغنوصيّة وخلفيّاتها وأبعادها. إنّ الجهود التي بُذِلَت من قِبَل الكنيسة في القرنَين الثاني والثالث بدايةً ثم في القرن الرابع، من أجل إزالة أيّ أثر "للتجديف" الهرطوقيّ، وخاصّةً بعد ارتداد قسطنطين إلى المسيحيّة، قد لاقت نجاحًا كبيرًا إلى حدّ أنّه، وحتّى اكتشاف مخطوطات نجع حمّادي، كلّ المعلومات التي نمتلكها حول مختلف صيغ المسيحيّة الأولى، تأتينا من هجومات آباء الكنيسة القويّة عليها.

لقد أعطت اكتشافات نجع حمّادي انطلاقة لحقبة جديدة من الدراسات، أكّدت على أنّ الغنوصيّة كانت حركة واسعة الانتشار تغرس جذورها في تقاليد مختلفة. إنّ جزءًا كبيرًا من الأدب المكتَشَف في نجع حمّادي هو مسيحيّ بشكل عامّ، بَيْدَ أنّ نصوصًا مختلفة تُبرِزُ تأثيرًا مسيحيًّا محدودًا أو أنّها لا تتضمّن أيَّ تأثير مسيحيّ. بعض النصوص مصدرها أساسًا وثنيّ، وبعضها الآخر يستعمل استعمالاً واسعًا التقاليد العبريّة.

في كلّ حال، حتّى الإثنان والخمسون مؤلَّفًا المكتَشَفة في نجع حمّادي تسمح بالكاد بتبيُّن تعقيدات الحركة المسيحيّة الأولى. يمكن الآن أن نفهم أنّ المسيحيّة اختارت مصادر محدَّدة، منتقاة من بين مصادر عديدة كانت متوفّرة؛ فمَن الذي قام بهذا الانتقاء ولماذا؟ لماذا استُبعِدَت مؤلَّفات أخرى لاعتبارها "هرطقة" ومُنِعَت من الاستعمال؟ ما الذي كان يجعلها بنظر الكنيسة خَطِرَة؟ لقد وفّرت لنا اكتشافات نجع حمّادي، وللمرّة الأولى، إمكانيّة اكتشاف شيءٍ ما حول الهرطقة المسيحيّة الأقدم؛ وللمرّة الأولى يمكننا أن نسمع الغنوصيّين يعرّفوننا بذاتهم.

تشتقّ الكلمة "الغنوصيّة" من الكلمة اليونانيّة gnwsij، أي "المعرفة"، ولكنّ هذا لا يعني أنّ كلّ معرفة هي غنوصيّة، لأنّ المعرفة الغنوصيّة هي موجّهة نحو أصل الإنسان ونحو عالمه.

كان الغنوصيّون ينادون بمفاهيم لم يكن المسيحيّون المستقيمو الرأي والإيمان يستطيعون أن يقبلوها. مثلاً، بعض هذه النصوص الغنوصيّة يطرح على بساط البحث مسألة أنّ الألم والتعب والموت تنتج عن الخطيئة البشريّة التي، في نظر المسيحيّين، لوّثت خليقةً هي في الأصل كاملة. وتتكلّم نصوص أخرى على العنصر النسائيّ في ما هو إلهيّ، معظِّمةً الله كأبٍ وكأُمّ. وتقترح نصوص أخرى أيضًا أن تُفَسَّر قيامة المسيح بطريقة رمزيّة وليس حرفيًّا. ويصل بعض هذه النصوص الأصوليّة إلى حدّ التنديد بالمسيحيّين واعتبارهم هراطقة[١٥].

كانت الغنوصيّة حركة ثقافيّة منتشرة جدًّا ما بين القرنَين الأوّل والرابع ب.م.؛ وقبل اكتشاف مخطوطات نجع حمّادي، كانت هذه الحركة موضوع دراسات محدودة، قام بها أخصّائيون معدودون. أمّا اليوم، فلم يعد الوضع على هذا الحال، مع أنّ هذه المخطوطات ما زالت تتطلّب الكثير من التعمّق والبحث، قبل أن نتمكّن من الوصول

(١٤) HYPPOLYTE, *Refut.*, 1,24.

(١٥) Cf. *Apocalypse de Pierre*, VII, 76, 27-30 = *The Coptic Apocalypse of Peter : A Genre Analysis and Interpretation*, Claremont 1977.

إلى معرفة تامّة للغنوصيّة، إذ إنّنا أمام حركة عرفت انتشارًا جغرافيًّا واسعًا جدًّا امتدّ من العراق الحاليّ إلى سوريا، فتركيا، وفلسطين، ومصر، وصولاً إلى روما، وليون في فرنسا، وغيرها، وشَمَلَ ليس فقط بلدان الأمبراطوريّة الرومانيّة، بل تخطّاها إلى أبعد منها. لم تكن الغنوصيّة حركة متناغمة، إذ كانت تيّاراتها عديدة ومتنوّعة، ممّا دفع بترتوليانوس إلى الكلام على "غابات الغنوصيّين"، وإيريناوس إلى التأكيد على أنّ الشِيَع الغنوصيّة تظهر "كالفطر"؛ مع هذا، كانت هناك بعض الخطوط الأساسيّة المشتركة في ما بينها.

تؤمن الغنوصيّة بانقسام عميق بين الغنوصيّين وبين العالم، وتشعر بثنائيّة مضادّة للكون، استنادًا إليها الشرّ، من أيّ نوع كان، هو حقًّا هذا العالم.

بالنسبة إلى الغنوصيّين، تنقسم البشريّة إلى فئات ثلاث: الروحيّون، أي النفسيّون، وهم قسم كبير من البشريّة، وخاصّةً عامّةُ المسيحيّين، الكنيسة الكبيرة، والأرضيّون الذين تسود عليهم المادّة، والذين لا شيء إلهيًّا فيهم. لا مجال للعبور من طبقة إلى أخرى، إذ إنّ الغنوصيّ يولد ويبقى غنوصيًّا.

يتمتّع الغنوصيّ في ذاته بعنصر دينيّ، بشرارة إلهيّة هي جزء من الكائن الأعظم الذي منه أتى، والذي عليه أن يشعر باستمرار أنّه منجذب إليه. لكنّ هذا العنصر الإلهيّ في الجسم البشريّ هو نائم، ويعيش في النسيان، محبوسًا كما في القبر، وكأنّه مغموس في الوحل، بالتالي هو بحاجة إلى إيقاظ، وتحرير من السجن، وفكّ قيود، وهذه عمليّات يعجز الغنوصيُّ عن القيام بها بمفرده؛ من هنا الحاجة إلى دعوة للقيام بذلك.

تَنْشُد طبيعةُ الغنوصيِّ الإلهيّةُ، والنزولُ إلى هنا، والنسيانُ، والعبوديّةُ، والدعوةُ، والإيقاظُ، ووعيُ الكينونةِ الخاصّةِ، أوقاتًا معادلة أساسيّة من الغنوصيّة. بوعي الغنوصيّ لـ"أنا"ـه، يَنبع منه الحزنُ، والغمُّ، والانشداد نحوَ الوطن البعيد، والضجر من العالم؛ يشعر في ذاته الله، والإلهَ المضادّ، والعداوةَ تجاه العالم والمنفى. شرائع العالم، التي هي لأجل المجتمع، لا يمكن لهذا الأخير تلقّيها، لأنّها تأتي من خالق الكون المادّيّ، وهو كائن جاهل، ذو صفاقة، خالق هذا المنفى، وهو من حكّامه.

تبدأ "العودة" من معرفة الذات، من "التذكّر العذب" للوطن: "عندما تلدون في فيكم بالذات ما عندكم، هو يخلّصكم، وإذا لم يكن فيكم بالذات لا تملكونه، وما لا تملكون يقتلكم" (**إنجيل توما**). كلّ مَن عرف ذاته، رأى مكانَ الحياة، والحياة الكاملة هي أن يعرف الإنسان ذاته بواسطة الكلّ. "إنطلاقًا من أنّه قد قيل أنّك توأمي ورفيقي...، إفحص ذاتك كي تفهم مَن أنت، بأيّة طريقة أنتَ موجود، وكيف ستُمسي؛ وبما أنّك تُدعَى أخي، من غير العادل أن تجهل ذاتك... من لم يعرف ذاته، لم يعرف شيئًا" (**إنجيل توما**). ويقول هيبُوليطُس في هذا السياق: "دع جانبًا التفتيش عن الله، والخلق، ومسائل أخرى من هذا القبيل؛ فتِّشْ عنه آخذًا نقطةَ انطلاقٍ نَفْسَكَ بالذات. إذا فحصتَ بانتباه...، فتسجده في ذاتك". إنّ معرفة الذات من أجل العودة إلى الوحدة، إلى المكان الذي جاء الإنسان منه، هي بداية المسيرة الغنوصيّة؛ هذا ما يعبّر عنه تيودوتوس بما يلي: "الغنوصيّة هي أيضًا: مَن كنّا؟ ماذا صرنا؟ أين كنّا؟ أين رُمينا؟ ما هو الهدف الذي نحوه نسعى؟ من أين افتُدينا؟ ما هي الولادة، وما هي الولادة من جديد؟".

يؤكّد الكاشف الغنوصيّ أنّه آت إلى عالم المائتين محبّةً بذلك الجزء الذي منه، والموجود في هذا المكان... يأتي إلى الذين هم خاصّته منذ البدء، يصل إليهم، ويقطع الأربطة. يعلم الغنوصيّ أنّ طريق العودة

طويل وصعب، ولكنّه مطمئنّ أنّه سيعود إلى موطنه. كما يعتقد أنّ الناس كانوا هيكلاً، ولكنّهم أصبحوا قبرًا. يجب أن يكفّوا عن أن يكونوا قبرًا، ويعودوا من جديد هيكلاً. هكذا يكتشف الغنوصيّ، وبفضل الاستنارة، هويّته الحقيقيّة كي يرجع إلى الوحدة مع الكائن الأسمى. يقول **إنجيل توما**: "مَن يشرب من فمي، يصبح مثلي، وأنا ذاتي أصبح مثله".

كانت الغنوصيّة تعبيرًا حادًّا عن معاناة النفس، وكانت تبحث عن حلٍّ شخصيّ وجذريّ عَبْرَ الانسحاب من العالم، والتركيز على البعد الداخليّ، والتخلّي، والاستشراق، مهملةً، وعن مبدأ، كلّ نوع من التوافقيّة والمؤسّساتيّة اللتين كان المسيحيّون الغنوصيّون يرون فيهما تضاؤلاً للحيويّة الإنجيليّة. إستنادًا إلى كتابات نجع حمّادي، كانت الغنوصيّة المسيحيّة تمثّل حاجة حميمة وشخصيّة لالتزام متسام بعدم الهرب من أيّ انقلاب للقيم المُمَأْسَسة، انقلابٍ مدافَع عنه ومُتابَع، وإنْ بأشكال متنوّعة، من قِبَل الغنوصيّين في القناعة العميقة بالشهادة لوجوه أساسيّة للرسالة المسيحيّة وبالدفاع عنها.

٧ – الأناجيل الغنوصيّة

ترمي الأناجيل الغنوصيّة إلى تسليمنا إيحاءات أعطاها يسوع إلى بعض تلاميذه المختارين. المقصود هو كلام، جزء منه هو قريب نسبيًّا من النصوص القانونيّة التي يمكن أن نقارنها معها. وهناك جزء آخرَ ينقل أقوالاً غير مألوفة، وغالبًا غامضة.

المعرفة الغنوصيّة هي مخبوءة ومحفوظة فقط للمنشّأين. ويمكن هذه المعرفة أن تكون وثنيّة، أو يهوديّة، أو مسيحيّة، الأمر الذي يعطيها تلوّنات متنوّعة جدًّا. في المسيحيّة، كانت هناك مناهَضةٌ قويّة لها بدءًا من القرن الثاني، خاصّة من جانب القدّيس إيريناوس، أسقف ليون، في مؤلَّفه **ضدّ الهرطقات**. قبل اكتشاف مخطوطات نجع حمّادي، لم نكن نعرف الفكر الغنوصيّ إلاّ من خلال الذين كانوا ينتقدونه.

هناك الكثير من نصوص نجع حمّادي التي تُنسَب إلى هذا أو ذاك من الرسل، وبعضها يحمل لقب "إنجيل"، بالرغم من أنّ لا شيء يقرّبها من النوع الأدبيّ الإنجيليّ، لا من حيث الصيغة ولا من حيث المضمون، كان الهدف من إطلاق هذا اللقب على هذه الكتب واضحًا، ألا وهو إضفاء شيء من السلطة عليها.

الأناجيل الغنوصيّة هي مؤلّفات ثمينة، خاصّة لأنّها تشكّل نوعًا من الشهادات على توسّع معرفة مسيحيّة في القرون الأولى للمسيحيّة، وتسمح بفهمها بطريقة أفضل.

لم تعتمد الأناجيل الغنوصيّة بالفعل النوعَ الأدبيّ الإنجيليّ. لقد أثارت هذه الأناجيل بالذات معارضةَ آباء الكنيسة الصريحةَ والجازمةَ. هي ليست كتبًا تاريخيّة، ولا روائيّة، بل تعليميّة ومقصورة على فئة معيّنة من الناس.

الأناجيل الغنوصيّة هي تأمّلات حول يسوع المسيح، وحول رسالته، وحول ردّات الفعل التي يثيرها في كلّ مؤمن، خاصّة إذا كان رَجُلَ فكر. هي ليست أبدًا مجموعات من المعطيات البيوغرافيّة حول يسوع. إنّ واضعي هذه الأناجيل هم رجال فكرٍ مسيحيّون. لكن هل كانوا يعرفون الأناجيل الأربعة القانونيّة؟ للوهلة الأولى قد يبدو ذلك ممكنًا، لكنّ دراسة معمّقة للأناجيل الغنوصيّة تؤدّي حتمًا إلى الشكّ في الأمر. إضافة إلى ذلك، لا يمكن إصدار حكم عامّ على هذه الأناجيل، لأنّ لكلّ منها خاصّيّته. من شبه المؤكّد أنّ واضعي هذه الأناجيل كانوا يعرفون "التقليد الإزائيّ" و"التقليد اليوحنّويّ" في صيغ لم تكن بعد رسميّة ونهائيّة عندما حُرِّرَت الأناجيل الغنوصيّة.

من حيث **الشكل والمضمون**، لا تشبه الأناجيل الغنوصيّة الأناجيلَ القانونيّة ولا الأناجيل المنحولة. في **إنجيل توما** لدينا عددٌ لا بأس به من "أقوال" يسوع، "أقوالٍ" تميّز هذا الإنجيل. في الأناجيل الغنوصيّة الأخرى، "أقوال" يسوع هي نادرة جدًّا؛ لدينا فيها بالمقابل تأمّلات حول يسوع. المعلّمون الغنوصيّون هم رجال فكر مسيحيّون يدعون مستمعيهم وقرّاءَهم أبناء المعرفة، ويعتبرون أنّ الجهل هو عبوديّة والمعرفة حرّيّة.

هؤلاء المعلّمون لا يعودون إلى العهد القديم، كما يفعل واضعو أسفار العهد الجديد، بل يتحرّكون بطريقة مستقلّة جدًّا. ويلاحظ أنّه لا ذكْرَ لأحد من شخصيّات العهد القديم، وهذا الأمر ذو مدلولات هامّة. لقد قبلوا الرسالة المسيحيّة عَبْرَ تنشئتهم الفكريّة المتطوّرة في الهلّينيّة التي كانت سائدة في أيّامهم، خاصّة واضع **إنجيل الحقيقة**؛ ويبدو أنّ واضع **إنجيل فيليبّس** كان ذا جذور عبريّة هلّينيّة.

خاتمة

تفتح اكتشافات نجع حمّادي من جديد مسائل رئيسيّة تتعلّق بالمسيحيّة في القرون الأولى من تاريخها. نصوص الأناجيل الغنوصيّة ليست سهلة، حتّى عندما يقول لنا ظاهرُها عكسَ ذلك. ألم يكن غنى هذه النصوص مقصودًا ويهدف بشكل مُتَعمَّد إلى توسيع وتعميق ذهن القارئ وقلبه؟ نترك الجواب لِمَن تُتاح له فرصة قراءة هذه النصوص والتعمّق في خلفيّاتها وأبعادها ومراميها من خلال المقالات التي يتضمّنها هذا العدد المخصَّص لها من **مجلّة بيبليا**.